عاصفة
يواجهها العالم الاسلامي والعربي

الأستاذ أبو الحسن علي الحسني الندوي

نشر و توزيع
المجمع الاسلامي العلمي
ص . ب ١١٩ لكهنؤ (الهند)
١٣٩٩هـ - ١٩٧٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه المحاضرة

الحمـــد لله رب العـالمين ، و الصلاة و السلام على سيد المرسلين ، محمد و آله و أصحابه أجمعين .

أما بعد ! فقد طلب منى أبنـاء الجامعة الاسلامية فى المدينة المنورة ، حين كنت مقيماً بهـا ، فى محرم ١٣٩٥هـ ، بمناسبة دورة المجلس الاستشارى الأعلى للجامعـــة ، أن ألقى محاضرة فى الجامعة ، وعينوا لى موضوع « ردة ولا أبا بكر لهـا » فقبلت دعوتهم منتهزاً هذه الفرصة للتحدث إلى هذه المجموعة الكبيرة من الشباب ، التى تنتمى إلى عدد كبير من الأقطار الاسلامية و العربية ، و لمـا عرفته من رغبة من الموجهين ، و المشرفين على الاتحـاد الطلابى فى الجامعـــة ، و ألقيتهـا فى جامع الجامعـــة فى ٢ من صفر ١٣٩٥ هـ

(١٢ / ٢ / ١٩٧٥م) ليلة الخميس بعد صلاة العشاء ، و غص المسجد بطلبة الجامعة ، وحضر المحاضرة عدد من أعيان المدينة و علمائها .

ومن عادتى أنى لا أنشط للحديث فى موضوع سبقت لى الكتابة فيه ، و البحث عنه ، و لا تتدفق قريحتى فيه ، فأقبلت على الحديث متردداً ، و لكن الله سبحانه وتعالى فتح على بعض جوانب جديدة فى هـــذا الموضوع ، و تناولته بأسلوب جديد ، و بحثت فيه عن العوامل النفسية فى العداء الشديد الذى يتسم به المفارقون لدينهم وشدة محاربتهم للاسلام ، و حقدهم عليه ، و عن أسباب تزعم كثير من قادة البلاد الاسلامية لهذه الثورات ، و تحمسهم لهـا ، و لماذا تعرض عدد من البلاد العربيـــة لهذه المحنة القاسية ، التى لا تتفق مع طبيعتها و تاريخها ، و دورها القيادى فى عالم الاسلام ، و تاريخ الاسلام .

و سجلت هـــذه المحاضرة شأن المحاضرات التى تلقى فى هذه المناسبات ، وتنافس فى تسجيلها الشباب ، و لما اطلعت

على نص المحاضرة منقولا من الشريط شعرت بفجوات فى هذه الكلمة المرتجلة، و الطابع الخطابى العاطفى ، الذى أصبح من سمات الأحاديث التى أرتجلها ، والمحاضرات التى تلقى فى جو مكهرب بالشعور بالواقع المرير ، و الألم الشديد ، و شعرت بأنه قد فاتنى فى هذا الحديث الذى أرسلت النفس فيه على سجيتها ، الاشارة على حقائق كانت فى صميم الموضوع ، و جاء التفصيل أحياناً كثيرة فى موضع الاجمال، و الاجمال فى موضع التفصيل ، و هنا تختلف الخطابة عن الكتابة ، والارتجال عن التفكير والتصميم ، فلم أر بأساً من أن أملأ هذه الفجوات و أكشف القناع عن هذه الحقائق و آتى بالتفصيل فى موضع التفصيل، والاجمال فى موضع الاجمال، وأضع العناوين الجانبية تجسيماً للمعانى التى جاءت فى المحاضرة ، وإننى بذلك لا أجنى على أحد، ولا أنسب إليه ما لم يقله ، إنما أزيد فى حديثى ، و أتناوله بتنقيح و تهذيب ، و بذلك أزيد فى قيمته، و فى تأثيره ، و لم أقصد إلا الخير .

و هكذا أصبحت هذه المحاضرة تكملة لرسالتى القديمة

« ردة ولا أبابكر لها » التي حظيت من القبول والاقبال من القراء ما لم تحظ رسالة أو مقالة من الرسائل والمقالات التي وفقني الله لكتابتها و عرضها ، و جاء فيها كثير من الحقائق العلمية الراهنة ، و تصوير لواقع كثير من البلاد الاسلامية و العربية التي تعيشه في هــذه الفترة ، أرجو أن تكون فيها إثارة لشعور وإنارة لعقول ، و تشحيذ لعزائم ، و استنهاض لهمم .

والله ولي التوفيق .

أبو الحسن علي الحسني الندوي
غرة ربيع الأول ١٣٩٥هـ
١٥ / ٣ / ١٩٧٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

عاصفة يواجهها العالم الاسلامى و العربى

بعد الحمد و الصلاة :

حديث تدفع إليه الضرورة ، ويحمل عليه الشعور بالواجب :

أما بعد ، فقد تمنيت أن يكون حديثى الليلة غير حديث عن الردة ، فان الحديث عن الردة غير حبيب و غير لذيذ ، ولا يقبل عليه الانسان الذى أكرمه الله بالايمان و أكرمه بالنجاة من الكفر ومن شوائب الردة ، إلا مكرها مضطراً ، لقد تمنيت أن يكون موضوعى هذه الليلة أمام هذه المجموعة الطيبة ، الصافية النقية ، المؤمنة البريئة ، موضوعاً آخر ، ولكن قد يضطر الانسان إلى أن يقوم بأعمال كثيرة ، أداءاً للواجب و قياماً بفريضة الساعة ، منها إعلان الحق ، و منها الانكار على المنكر ، ومنها الجهاد فى سبيل الله ، ومنها محاربة

الكفر ، و يثاب على ذلك ثواباً ، لا يثاب على كثير من الأعمال التى فيها متعة روحية ، و لذة نفسية .

المفارق لدين الاسلام ، أشد عداءاً
و عناداً له من الكافر العام :

أيها الاخوة الكرام :

إنى لا أريد أن أتحدث إليكم فى هذه المناسبة الكريمة عن الكفر المطلق العام ، فان الكفر له أحكام ، و إن الكفر له طبيعة خاصة ، و إن الكفر له تاريخ معروف ، وإن الصراع بين الحق و الباطل ، و بين الايمان والكفر ، صراع دائم خالد عالمى ، إن الصراع بين السراج المصطفوى و بين لهيب أبى لهب (١) صراع خالد ،

(١) الجملة مقتبسة من شعر للدكتور محمد إقبال رحمه الله ، يقول فيه :
« لقد دام شرار أبى لهب (يعنى الكفر و معاداة الدين الحق) فى حرب و صراع مع السراج الذى أناره محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم أخيراً (يعنى الاسلام) منذ أول يوم إلى أن يرث الله الأرض و من عليها » .

خالد مع الانسانية وخالد مع الكون ، ولكننى أتحدث إليكم عن وضع خاص ، و نوع خاص للكفر ، و هو أن يفارق الانسان الاسلام ، كراهة له ، وانصرافاً عنه ، وزهداً فيه ، و استبدالا لغيره به ، و هذه هى الردة المصطلحة التى عرفها التاريخ و سجل حوادثها النادرة بعد البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة و السلام ، إن دراستى القاصرة المحدودة للتاريخ ، و لتاريخ الاسلام بصفة خاصة أدتنى إلى أن الردة أشد من الكفر ، و أن الذى يتورط فيها هو أشد عداء و محاربة للاسلام و أشد عناداً له ، و حقداً عليه من الكافر الذى ولد فى الكفر وعاش فى الكفر ، إنى كلما تتبعت الحوادث التاريخية و استقصيتها استقصاء المؤرخ ، فقد سايرت ركب التاريخ الاسلامى خطوة خطوة ، رأيت المرتد عن دين الله ، هو كالثائر الموتور الذى يشتعل حماساً ضد الاسلام و بغضاً متأججاً ملتهباً ، وإن كل من قرأ التاريخ لابد أن يؤيدنى فى استخراج هذه النتيجة .

قضية من قضايا علم النفس تطلب دراسة وتحليلا :

وهذه قضية من قضايا علم النفس ومن خصائص الطبيعة البشرية ، تحتاج إلى دراسة جديدة و عميقة ، لماذا يمتاز المفارق لدينه القديم عن الذى لم يؤمن بالاسلام و لم يدن به فى يوم من الأيام بهذه الضغينة ، و بهذا الحماس الشديد وبهذه الترة على الاسلام والمسلمين ؟ !

هذا سؤال على يحتاج إلى شئ من التحليل ، ويطلب من علماء النفس و الفلسفة أن يكون موضوع دراستهم و عنايتهم ، إن هذه الدراسة ستفتح نافذة جديدة على أغوار النفس الانسانية وأسرارها وتطلع على كثير من العقد النفسية التى أعيت علماء الأخلاق وعلم الاجتماع وتساعد الباحثين والمؤرخين فى فهم كثير من قضايا التاريخ وحوادث الاضطهاد الدينى و المحاربة العقائدية ، و إنى كتلميذ التاريخ وشغوف بدراسة علم النفس أعرض عليكم ما اهتديت إليه من معرفة بعض أسباب هذا البغض والدوافع النفسية لهذا العداء الشديد ، الذى يمتاز به من فارق دينه و اضطربت عقيدته وتزلزلت ثقته بالاسلام ، ولماذا يكون هذا الرجل أشد استيحاشاً

من كل ما يتصل بدينه القديم وأضيق صدراً وأقل احتمالا لكل ما يمت إليـه بصلة قريبة أو بعيـدة ، و يقسو قلبه حتى لا يعرف هوادة ولا ليناً ، ولا يرقب فى مؤمن إلا ولا ذمة ، وإليكم بعض هذه الأسباب الطبيعية والعقلية والنفسية والدينية .

ظلام بعد نور :

إنكم تعرفون جميعاً أن المصباح إذا انطفأ أحدث ظلاماً أشد ، نأخـذ غرفتين على سبيل المثال غرفـة لم يكن فيهـا مصبـاح ، هذه غرفة مظلمة قد تمضى عليهـا أيام وليال من غير نور ، الانسان إذا دخل هذه الغرفة ربما يهتدى إلى أشياء بنظره الحديد لأن الغرفة عادية و ليس فيها شئ غير عادى ، ولـكن بجوار هذه الغرفة غرفة أخرى يضئ فيها سراج منير ثم ينطفئ هذا السراج ، فالانسان يشعر بظلام زائد لأنه اعتاد هذا النور و اعتمد على هذا السراج ، فلما انطفأ هذا النور و توارى هذا الضيـاء الذى أشرقت به هـــذه الحجرة التى لم يكن فيها منفذ للنور أصبحت كالقبر وأوحشت على أهلها ، هكذا القلب الانسانى إذا لم يشرق بنور ربانى سمـــاوى فهو

قلب مظلم لا شك ، و لكن القلب الذى أكرمه الله بالنور فأشرق وأضاء ثم أزيل عنه هذا النور ، كان أشد ظلاماً وأشد سواداً ، وأشد قسوة وأشد وحشة وضيق صدر وقلة صبر ، وأشد شراسة وأكثر ضجراً وأسرع غضباً و أخف عقلا ، من القلب الذى لم يذق حلاوة الايمان و لم يشرق بنور الله فى يوم من الأيام ، وهى تجربة نمر بها فى حياتنا اليومية ونرى لها شواهد و أمثالا فيما حولنا .

عقوبة الكفران بنعمة الله :

و العامل الثانى أننا إذا تتبعنا القرآن و درسناه دراسة عميقة عرفنا أن عقوبة الله تبارك وتعالى تنزل أشد على من أكرمه الله بنعمة الايمان ثم جحد بها وكفر ، وحرم نفسه إياها ، و أثر هـــذا الجحود و الكنود فى إثارة غضب الله و سخطه و تحريك غيرته ، أشد من أثر جميع أنواع الكفر وأصناف المعاصى والذنوب ، قال الله تعالى : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » (١)

(١) سورة إبراهيم : ٧

وقال « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً منه كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (١) وقال: « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً و أحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها و بئس القرار » (٢) وقال : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * و لو شئنا لرفعناه بها و لكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » (٣) هذه عقوبة الجاحد بنعمة الله ، الكنود الذى أكرمه الله بأكبر نعمة ثم جحد فضلها و جرد نفسه عنها ، أما من ولد فى بيئة كافرة ونشأ فى بيت كافر وعاش فيه ، وما عرف لذة الايمان ، و لم تخالط بشاشة الايمان قلبه ، فأمره يختلف كل الاختلاف عن الذى ذاق

---

(١) سورة النحل : ١١٢ (٢) سورة إبراهيم : - ٢٩ ٣٠

(٣) سورة الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦

حلاوة الايمان ، ونعم فى ظلها ، و ارتضع بلبانها ، وأظلته ظلال الاسلام الوارفة ، ثم حرم نفسه هذه النعمة ، التى لا نعمة فوقها ، حينئذ تتحرك غيرة الله تبارك و تعالى فيعاقبه بمسخ خلق عقلى ، فتنقلب الحقائق فى عينه وتفسد و تختل موازين عقله ، ويفقد قلبه كل صلاحية لقبول الحق ، وكل معنى من معانى الرقة والعطف والرحمة ، ويصبح إنساناً منكوساً مطموساً ، ويصبح مصداق قوله تعالى: «ثم رددناه أسفل سافلين» (١) نعوذ بالله من ذلك ، ونسأله العافية والسلامة ، و الشكر على نعمته ، والعض عليها بالنواجذ .

مرض « مركب النقص »
وما يسبب من ضغن وحسد:

وهناك عامل ثالث ، عميق الجذور فى النفس الانسانية ، قوى السيطرة عليها ، و هو مرض نفسانى يصاب به كثير من العقلاء و العظماء ، و الأقوياء و الرؤساء ، و هو مثال للتناقض الغريب الذى عجنت به طينة الانسان ، وتجلى فى مظاهر غريبة ، و فى غموض والتواء ، قد لا يهتدى إليه كبار علماء

(١) سورة التين : ٥ .

النفس و لا يتفطن له كثير ممن يصابون به، و هو ما يعبر عنـــه علمـــاء النفس اليوم بـ « مركب النقص » (Inferiority Complex) (١) وهو من أكثر أمراض النفس تعقداً و أصعبها علاجاً، و إليكم شرح هذه النكتة فى إجمال واختصار :

إنى أوجه إليكم سؤالا يطلب منكم جواباً سريعاً صريحاً، لماذا يحارب المفارق لدينه المضطرب فى عقيدته، أولئك الذين كانوا يشاركونه فى عقيدته ودينه بالأمس، وما أساؤا إليه وما حاربوه، لقد كان هذا الرجل مسلماً متديناً بالاسلام بالأمس، فلماذا عاد محارباً للعقيدة التى كان يدين بها و لأقرانه و بنى جلدته و أبناء ملته الذين عاش معهم حقبـــة طويلة، لمـــاذا يحاربهم اليوم حرباً شعواء، لماذا ينزل عليهم أنواعاً مـــن العذاب تقشعر منها الجلود، لماذا يتفنن فى تعذيبهم وإيلامهم، لماذا يقوم لهم بالمرصاد فى كل وقت ؟ و إن له

(٣) ويعبر عنه بعض علماء النفس و أهل المعاجم، بعقدة النقص و مركب الدونية .

فى حياته و براجه وفى مسئولياته الكثيرة وفى لذاته وهواياته ما يشغله عن كل ذلك ، و لكنه يجد فى وقته الذى ضاق عن كثير من المهمات متسعاً لعقوبة هؤلاء و مطاردتهم و اضطهادهم فيتفرغ لهم و يحصى عليهم الأنفاس ويعاقبهم أشد العقاب ، ويتلذذ بذلك ، و قد يكون لكثير من هؤلاء محبالهم و الآن أصبح أعدى عدو لهم ، لا يطيب له العيش و لا يجد لذة فى الطعام و الشراب حتى يعاقبهم أشد عقاب ويذيقهم سوء العذاب .

هذا مركب النقص فى هذا الرجل ، إن هذا الرجل ، الذى حرم عزة الايمان و لذته ، صار ينظـــر إلى هؤلاء الذين لا يزالون متمسكين بدينهم ، معتزين به ، نظرة فيها السخط ، نظرة اجتمع فيها احتقار النفس ، و الادلال بها اجتماعاً غريباً ، و هو فى وقت واحد يحتقر نفسه ، و يبالغ فى تعظيمها ، نظرة تنطوى على حقد شديد ، وانتقام للنفس ، لماذا كفرت وآمنوا ؟ لماذا آثرت الخروج من هذا الدين ، و بقى هذا العدد الكبير متمسكاً بدينه و عقيدته ، معتزاً

به ؟ هل هم أفضل منى خلقاً ، و أكبر منى عقـلا ، وأكثر منى تمسكاً ، و أغير منى على مبادئهم و ضمائرهم ، و أعف من مساومتها والتخلى عنها ؟ هل عندهم من الذكاء والعبقرية ، و من الاءباء ما ليس عنـدى ؟ هذا مركب النقص ، الذى يصاب به هؤلاء الذين يرون رأيا غير ما رآه المسلمون .

المصابون بهذا المرض من العقلاء
والزعماء ، و تناقضهم العجيب :

و قد يبدو هـذا المصاب بمركب النقص متكبراً متجبراً متغطرساً ، و يكون فى أكثر الأحوال غافلا عن وجود هذا المرض الذى يصاب به صغار النفوس ، و ضعاف العقول ، و ما هو إلا نتيجـة الشعور بالضعف فى أعمـاق النفس ، و يقع كثير من الزعمـاء و القـادة ، و رؤساء الجمهوريات و رؤساء الوزراء ، فريسة هـذا المرض العضال ، و العقدة النفسية ، التى تفوق أكثر العقد النفسية دقة وتعقداً ، يصابون به كما يصاب الأطفال الصغار ، والجهال الأميون ، ويتسلط عليهم هذا المرض يأمرهم وينهاهم ، و يملى عليهم أحكامـه

فيخضعون لها و يمتثلونها كالعبيد ، تقول لهم نفوسهم المرهفة الجريحة ، يجب أن ينفى هؤلاء المعارضون ، ويغيبوا ويتواروا عن الأنظار حتى لا يقول قائل : إن هؤلاء متمسكون ، وهذا مضطرب ، و إن هؤلاء أقوياء ، و هـذا ضعيف النفس ، و ضعيف الارادة ، قد باع ضميره ، و باع دينه بدنياه .

محاولة التخلص من تأنيب النفس و إيلام الضمير :

إن أكبر مجرم — كما يعرف علماء النفس — يساوره تأنيب النفس ، و وخز الضمير بين حين و آخر ، إلا أن يمسخ مسخاً كلياً ، و يقوى هذا التأنيب عند وجود طراز آخر من العقيدة و الخلق ، و منهج الحياة ، لذلك حرص كثير من المجرمين ، و عباد النفس و الشهوات ، و المنحطين للدرك الأسفل من فساد الأخـلاق ، على إخراج العنصر النظيف الطاهر ، المتمسك بالفضائل ، من أرضهم ومجتمعهم ، ليريحوا ضمائرهم بشكل دائم ، و يتخلصوا من لومة نفوسهم و ألمها فى بعض الأحيان ، وهذا الذى حكاه القرآن عن أمة أسفت إلى درجة قصوى فى الانحطاط الخلقى ، و الشذوذ

الجنسى ، و نقل مقالتهم : « أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون (١) » .

نفسية الضعيف العاجز :

إنه نوع من مركب النقص لم يبحثه علمـــاء النفس ، وليس منهم بسبيل، ولا موضوعاً يهمهم ، ولعله أكثر دقة ، و أكثر غموضاً ، و أبعـد أغواراً من جميع أنواع مركب النقص ، التى بحثوا عنهـا فى كتبهم المؤلفـــة فى علم النفس و الأخلاق ، و هى نفسية غريبة ، يسهل فهمهـا فى ضوء التجارب و الواقع ، أما ترون إلى طالب راسب - و هذا المثل أقرب إلى أذهـانكم و حيـاتكم - كيف يعادى زملاءه الناجحين ، و قد يحمل لهم حقداً و ضغينة ، فما ذنب هؤلاء الزملاء ، إنهم اجتهدوا و استحقوا النجاح ، فمن منعك أيها الطالب الراسب من الاجتهاد والنجاح ؟ إنه مركب النقص ، و إن النفس تريد التسلية ، و الانسـان قد يتسلى بأمور لا تنفعه ، و ليست لها قيمة كبيرة ، إن زملاءه لم يسيئوا إليه ،

---

(١) سورة النمل : ٥٦ .

و لم يحولوا بينه وبين النجاح ، فما الذى أوغر صدره عليهم ؟ لذلك التاجر المفلس الذى أفلس ، يحسب أولئك التجار الذين يربحون فى تجارتهم أعداءه ، و منافسين فى بعض الأحيان ، يتربص بهم الدوائر ، ويشمت بمصائبهم ، و يتسلى بما يسوءهم ، و هذه هى نفسية الضعيف العاجز ، الكسول المضياع ، و قد يتمنى أن يصبح كل تاجر فى البلد ، و كل زملائه فى التجارة تجاراً مفلسين ، قد خسروا رؤس أموالهم فيكونون سواء ، و من الأمثال المضحكة أن أصلع سئل ، ماذا تريد ؟ قال : أحب أن يصبح الناس كلهم صلعاً ، لا شعر برؤوسهم ، فأنظر إليهم نظرة كانوا ينظرون بها إلى ، و هذه العقدة النفسية ، التى يصعب علاجها ، و هى التى ابتلى بها أهل الكتاب فى عصر نزول القرآن ، و التى أخبر الله بها فى كتابه ، فقال : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق (١) » ولا تزال هذه النفسية ، قائمة فى كل من لم يكتب له نصيب فى هذه النعمة الجليلة .

---

(١) سورة البقرة : ١٠٩ .

أنانية و كبرياء :

و العامل الرابع هو الأنانية و الكبرياء ، إن صاحب الأنانية لا يطيق أن يرى أن يتفوق عليه أحد ويمتاز بشئ ، إنه يريد أن يسير الناس وراءه ، ولا يخالفوه فى شئ ، إنه يرى أنه هو القدوة ، والمثل الكامل فى كل شئ ، وما أخطأه و كان من نصيب غيره ، فلا خير فيه ، و أنه هو المقياس الوحيد لكون الشئ خيراً أو شراً ، هذه هى النفسية الانسانية ، التى يصاب بها الزعماء و القادة ، و أصحاب الطموح عادة ، وهى ضد النفسية الأولى ، التى سميناها مركب النقص ، و هى التى يسميها علماء النفس (Superiority Complex) وهى مغالاة المرء فى الايمان بتفوقه (١) ، و قد أزاح الله عنها الستار بالآية القرآنية البليغة ، فنقل مقالة هؤلاء المتكبرين ، و قد نظروا إلى الذين آمنوا بالنبي المبعوث ، و وضعوا أيديهم فى يده ، وهم ليسوا فى درجتهم من الرخاء و الجاه : « أهؤلاء من الله عليهم من بيننا (٢) » و تارة

(١) ويسميها بعض علماء النفس وأصحاب المعاجم بمركب الأعلوية أوالاستعلاء .
(٢) سورة الأنعام : ٥٣ .

قالوا : « لو كان خيراً ما سبقونا إليه (١) » و ما حوادث الاضطهاد و التعذيب ، و القتل و التشريد ، التى حكاها القرآن عن المترفين ، و أصحاب الحول و الطول فى عصور مختلفة ، إلا نتيجة هذه الأنانية الجريحة ، وانتقاماً لها من الذين تحدوها ، أو أهانوها ، أو تجاهلوها .

مثالان من التاريخ القديم و الحديث :

و ما قلت لكم أيها الاخوة إن الذى يفارق دينه ، وتضطرب عقيدته ويثور عليها ، يكون أشد عداءاً للاسلام ، و محاربة لأبنائه ، حقيقة تاريخية لا يمكن إنكارها ، و تاريخ الاسلام فى العهود الأخيرة غنى بأمثلته و حوادثه ، و تاريخنا المعاصر يحمل أمثلته و نماذجه ، و أضرب لكم مثلين من تاريخنا الاسلامى فى الماضى القريب ، وفى العصر الحديث .

لعلكم سمعتم عن أحد ملوك الهند الكبار الامبراطور جلال الدين محمد أكبر (٩٤٩ — ١٠١٤هـ) ، لقد كان هذا الملك عريقاً فى الاسلام ، و جده ظهير الدين محمد بابر

(١) سورة الأحقاف : ١١ .

التيمورى (٨٨٨ — ٩٣٩ ﻫ) ، هو الذى أسس الدولة المغولية فى الهند ، التى دامت ثلاثة قرون ونصف قرن ، وكتب لها من الازدهار و من التوفيق والانتاج ، فى جميع مجالات الحياة الانسانية ، فى مجال الحضارة ، وفى مجال الفن المعمارى ، و فى مجال الثقافة ، و فى مجال التنظيم الادارى ، و مجال الفتوح الجديدة ، و توسيع المملكة ، ما لم يكتب لدولة من دول الهند الكثيرة التى قامت فيها ، و ظهير الدين بابر هو الملك المؤيد المسلم ، الذى لما رأى عجزه عن مقاومة جيش « رانا سانجا » الملك الهندوكى ، الذى كان يفوق جيشه فى العدد والعدد مراراً كثيرة ، فكان جيش بابر مؤلفاً من عشرين ألفاً ، وفى الجيش المنافس أكثر من مأتى ألف (٢٠٠٠٠٠) مقاتل ، وجيش بابر جيش محصور ، مفصول عن كل جانب ، لا يطمع فى مدد و لا فى ميرة ، فقد بعد عن مركزه وعاصمته آلافاً من الأميال ، هنالك دعا القائد المسلم ، و طلب النصر من الله ، وأعلن توبته عن تعاطى الخمر ، واقتراف المحرمات و المنكرات ، و توسل بذلك إلى الله ، فكان النصر المبين ،

و استقام الملك على توبته و عهده ، وجلال الدين أكبر هو حفيده ، و قد نشأ أميا ، و نشأ على الفروسية ، و صناعة الحرب ، و لم تسمح له ظروفه الخاصة بأن يتعلم ، فنشأ أميا لم يقرأ و لم يكتب ، وقد أحاطت به حاشية من علماء وأذكياء طغت عليهم العلوم العقلية ، و اضطربت عقائدهم ، و قد زينوا له أن يدعو علماء كل ملة ، و يعرضوا عليه عقائدهم ، و يعرفوا بدياناتهم ، و كان رغم أميته و نشأته العسكرية ، صاحب رغبة جامحـــة فى المناظرات و البحوث العلميـــة ، وما أشدها خطراً على من لم يتعمق ، ولم ينضج عقله !؟ وكان يتسلى ، ويتمتع بمناظرات العلماء و مطارحاتهم ، كما كان يتسلى الملوك القدماء ، و الأمراء المتنعمون بتناقر الديك و تناطح العنز ، ثم إنه اطلع بذكائه ، وبحكم اتصاله بعلماء البلاط على مواضع الضعف عند هؤلاء ، و شغف بعضهم بجمع الأموال و الاكتناز ، و كان رجلا مرهف الحس انفعالياً ، وكان فى حرمه عدة بنات لأمراء الراجبوت ، و كان أثرهن عميقاً فى نفسه ، كل ذلك زرع فى نفسه الشكوك والشبهات ، وأضعف

صلته بالاسلام ، حتى فارق هـــذا الدين ، و نشأ على مر الأيام فى صدره عداء للاسلام ، حتى كان من شدة عدائه ، أنه كان لا يسمح لأحد أن يسمى ولده محمداً ، وأباح الخمر ، و شجع على شربها ، و حرم ذبح البقرة ، و كان جزاء من ارتكب هذه الجريمة قتلا ، و صدرت عنه حركات صبيانيـة لاتتفق مع عقله الكبـير ، و حنكته الادارية ، كالأمر بأن يدفن الميت من المسلمين بحيث يستقبل القبلة برجليه إهانة لها ، وكان ينام دائماً بهذه الصفة ، وأعلن أن النظر إلى الخنازير والكلاب فى الصباح ثواب وبركة ، غيظاً للسلمين ، و إهاجة لهم ، و أمر بإخراج الحروف التى هى خاصة بالعربيـة من اللغة الفارسية والتركية ، المستعملتين فى الدواوين و الكلام ، كالثاء ، و الصاد ، و العين و غيرها ، كراهة للغة القرآن و انصرافاً عنها ، و إنمـا يكون ذلك حين يتعدى العداء حدوده ، فيصبح جنوناً ، و كان الاسلام هدف استخفافه وسخريته ، كأنه لم يكن هنالك شئ أحق بالمحاربة والازالة ، و أكثر مجانبة للعقل و الكيـاسة منه ، وهذا قانون عام ،

فان العاطفة تخل الميزان ، وتحمل على التطفيف فى الكيل ، و كان المسلمون هدف كل إهانة و سخرية و اضطهاد ، إنها قصة طويلة ، مضحكة مبكية ، يستطيع الانسان أن يقرأها مفصلة فى الكتب المعاصرة ، وقد ذكرتها فى بعض كتاباتى و مؤلفاتى .

و المثل الثانى : هو كمال أتاترك الذى ليس عهده بعيداً عنا ، وقد ولد فى شعب مسلم عرف بحبه الشديد للاسلام ، و بوقوفه بجوار الاسلام ، و بحمله لرايته فى قلب أوربا ، إن هذا الرجل لما فارق هذا الدين لأسباب نفسية وخلقية و تربوية ، شرحتها فى كتابى « الصراع بين الفكرة الاسلامية و الفكرة الغربية » نصب حرباً على الاسلام والمسلمين ، وقد كان له فى قضايا الشعب ، و معضلات السياسة ، و تحديات الدول المحاربة ، و الأخطار المحدقة بالبلاد ، شغل شاغل عن المحاربة للاسلام و المسلمين ، و القضاء على شخصية الشعب المسلم ، الغيور المجاهد ، وإزالة آثار الاسلام عن هذه البلاد العريقة فى الاسلام و الثقافة الاسلامية ، وعن معركة

القبعة (١) و حرب الحروف اللاتينية ، و منع الأذان بالعربية ، إلى غير ذلك من الاصلاحات ، التى لا تقدم و لا تؤخر فى نهضة البلاد ، و قوة الشعب العسكرية ، و لكنه كان يعتبر ذلك أكبر خدمة للبلاد و الأمة ، و استهلك فيها أكبر نصيب من قوته وصلاحيته ، و جاهد فى غير جهاد ، و انتصب محارباً للاسلام انتصاب عصامى ، قوى الشكيمة ، شديد العزيمة .

الردة سلبية دائماً ، ولا تقوم إلا على
أنقاض الديانة القديمة ، و محاربتها :

و هذه طبيعة الردة و الثورة على دين و عقيدة ، فى كل زمان ومكان ، تسالم كل شئ و كل عدو ، و ترق معه و تساومه ، إلا الدين الذى فارقته ، و الشعب الذى انشقت

(١) إنه ألزم شعبه التركى لبس البرنيطة مكان الطربوش الذى كان شعاراً لهم ، و شعار كثير من الشعوب الاسلامية ، تقليداً للشعب التركى المحترم عندها ، وشدد فى ذلك تشديداً عجيباً ، ذهب ضحيته كثير من المحافظين عليه والمدافعين عنه ، اقرأ تفصيله فى « الصراع بين الفكرة الاسلامية و الفكرة الغربية ص ٦٦ - ٦٧ .

عنه ، إن وضع الردة غير وضع الكفر ، إن الردة لاتقوم و لا تعيش إلا على أنقاض الديانة القديمة ، و أشلاء أبنائها وأتباعها ، إن مصيرها ومستقبلها مرتبطان بالعداء للاسلام ، فانها سلبية فى كل مرحلة من مراحل حياتها ، و هى تؤمن بمبدء « إما إسلام وإما ردة » وقد عاش الكفر والاسلام آلافاً من السنين فى حدودهما ، و لكن الردة لا تستطيع أن تعيش بجوار الاسلام راضية بالخط الذى رسم بينهما ، إن غذاء الردة و وقودها من محاربة الاسلام ومحاولة القضاء عليه ، فلايعرف صاحب الردة روح التسامح ، و مبدء « التعايش السلمى »

موجة طاغية من الردة الفكرية و العقائدية فى بعض الأقطار الاسلامية و العربية :

وتكتسح الآن بعض الأقطار الاسلامية والعربية موجة طاغية من الردة الفكرية و العقائدية ، تأكل الأخضر واليابس ، موجة عارمة قوية ، كموجة البحر الهائج المائج ، لا تعرف الرحمة والرقة . و لا تأجيل ساعة ، موجة تريد أن تبتلع كل

ما اعترض فى سبيلها من قيم ومفاهيم ، وعقائد وتصورات ، وشعائر ومظاهر ، إننا نرى — ومعذرتى إلى هؤلاء الاخوان الذين ينتسبون إلى هذه البلاد — فى بعض هـذه الأقطار ، انصرافاً شديداً عن كل ما يمت إلى الاسلام بصلة ، كأن سائقاً عنيفاً يسوق قادتها إلى غاية معينة ، و كأنهم يريدون أن يتداركوا ما صدر من آبائهم ، والأجيال السابقـة من حمل مشعل الاسلام ، ورفع رايتـه فى الأقطار البعيدة ، وإنقاذ الأمم من جاهليتهـــا و وحشيتها ، فى أسرع وقت و أقرب مدة ، وكأنه كان ذنباً يجب التـكفير عنه ، و تلافيه فى أول فرصة ، فيريدون أن يكملوا حساب قرون فى شهور ، وحساب شهور فى ساعات ، إنهم يريدون أن يسيروا بشعوبهم و مجتمعاتهم التى لا تعرف غير الاسلام ، بخطى سريعـــة ، ولـكن حاسمة ، إلى جاهليتها الأولى ، أو إلى جاهليـــة القرن العشرين ، حتى يتعدوا فى ذلك حدود الانسانية ، و مبادىء حقوق الانسان ، وحرية الرأى ، ومبادىء الجمهورية البسيطة الأوليـة ، و يدوسونها بأقدامهم ، و قد يتظاهرون بوحشية

و قسوة يندر نظيرها فى تاريخ الأمم الوحشية ، وفى عهد محاكم التفتيش فى أوربا فى القرون الوسطى المظلمة ، فلا يتحاشون عن قتل و إحراق و تعذيب ، و لا يبالون نقد أو لائمة أو تعليق ، أو احتجاج ، وهذه قصة الصومال ، وقد أصبح حديثها الحديث العام و الشغل الشاغل (١) .

وكيف يطيب لى أيها الاخوة الكرام ، وكيف يطاوعنى لسانى إذا أشرت إلى ما يقع فى اليمن الجنوبى ، وفى عدن ، اليمن الذى وصفه لسان النبوة برقة الأفئدة و لين القلوب ، و الايمان و الفقه و الحكمة (٢) ، اليمن الذى انتهت إليه

(١) قد أذاعت وكالات الأنباء ، و بعض الصحف الأوربية ، أن جمعاً من العلماء (يبلغ عددهم إلى عشرة) قتلوا حرقاً ، لأنهم عارضوا بعض الاحكام الرسمية الجديدة التى تتعارض مع النصوص القرآنية ، والمقررات الاسلامية ، كالمساواة بين المرأة و الرجل فى التركة وحق الطلاق وغيره .

(٢) « إن وفداً من اليمن قدم إلى المدينة فاستبشر به النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال لأصحابه ، كما جاء فى حديث صحيح أخرجه الشيخان : « أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة ، و ألين قلوباً ، الايمان يمان ! والحكمة يمانية » و فى رواية لهما « و الفقه يمان »

رئاسة علم الحديث الشريف فى العهد الأخير ، اليمن الذى لا يذكره إخواننا فى الهند إلا مقروناً باليمن و السعادة ، فيقولون : « اليمن الميمون » و قد أصبحت هذه الأقطار مسرح حرب شعواء ، حرب مسعّورة مسجورة ضد الاسلام، و أصبح قادتها منصرفين إلى محاربة الاسلام و أهله ، كأنها هى الحرب المقدسة ، حرب إنقاذ الانسان من الوحشية و السخافة و الظلم ، و كأن الأرض قد تطهرت من جميع الرذائل و السخافات ، و المهازل و المآسى ، مع أن العالم لا يزال يعانى الشئ الكثير منها ، فاستعباد الانسان للانسان لايزال كما كان فى العصور الأولى، ولايزال امتهان الانسانية ، و إهدار القيم و الكرامات ، وانتهاك الأعراض ، و أكل القوى للضعيف ، و استعباد الشعوب للشعوب ، و التمييز العنصرى ، و الفرق بين الأبيض والأسود ، وبين الأمريكان البيض ، و الزنوج السود ، و لا يزال تقديس المال ، وتأليه القوى ، و المغالاة فى عبادة النفس ، والرتع فى الشهوات ، و الولوغ فى دماء الانسان ، و الجشع المادى ، و التدلى إلى

أدنى حدود الحيوانية ، قائماً على قدم وساق ، وفى كل بلد ، أما كان لهؤلاء القادة و الأسياد شغل شاغل فى محاربة هذه الرذائل ، و مواجهة هذه الحقائق ، أكان الاسلام الذى هو مقصوص الجناح ، مكتوف اليد أحق بالمحاربة من كل شئ ، و كان أكبر خطر يجب أن يزال ؟ ! ، و لكنها هى قضية الردة ، نفسية « مركب النقص » نفسية الأنانية ، التى تحدثت عنها فى أول حديثى ، وهى مع الأسف أطغى فى بعض البلاد العربية منها فى كثير من الأقطار الاسلامية .

ففى تونس البلد الاسلامى العربى الحبيب الذى مثل دوراً قيادياً فى تاريخ العلوم الاسلامية ، و بعض الحركات الاصلاحية ، و الروحية ، و نبغ فيه عدد من أئمة الفكر وقادة الاصلاح ، و نبغ فيه عبقرى مثل العلامة عبد الرحمن ابن خلدون (م٨٠٨هـ) منشئ فلسفة التاريخ ، ورائد البحث العلمى ، والتحليل الفلسفى للتاريخ ، قد ضرب قائده و زعيمه الحبيب بورقيبة رقماً قياسياً فى الاستهانة بالعقيدة الاسلامية ، و إنكار النصوص القطعية المتواترة ، وظهرت منه جراءة على

إنكار ضروريات الدين ، وعلى منصب الرسالة وحامله الأخير عليـــه ألف ألف سلام لم تصدر إلى الآن من زعيم يتسمى بالاسلام ، و يتزعم شعباً مسلماً ، هذا عـدا بعض الأقطار العربية الاسلامية التى نسبة المسلمين العرب فيهـــا أكثر من تسعين فى المـأة ، و قد قادت العـالم الاسلامى مدة طويلة وحكمت أكبر رقعة من العـالم المتمدن المعمور فى الزمن المـاضى ، و تداولت الخلافة الاسلامية لأطول مدة ، يحكمها الآن بعض الأحزاب التى لا تمت إلى الاسلام بصلة ، و تؤمن بالمبادىء الاشتراكية ، والقومية و العلمـانية ، و إن كان الأمر بالخيرة ، و جاز التبـادل رضى بعض المسلمين — و سأكون فى مقـدمتهم — بأن يكون أى قطر إسلامى مكان الأقطار العربية فى هذه المحنـة العقائدية ، و الخلقية ، و يكون فدية لهـذا القطر العربى ، فانه مادة الاسلام ورأس ماله و رصيده ، و العالم الاسلامى كله امتداد لمركز الاسلام الأصيل ، و ربح يضاف إلى رأس المال ، ولـكن ليس الأمر بالخيرة ، و ليست القضية قضية تبادل و مساومة .

كيف استطاع القادة أن يقودوا حركة الردة و الثورة على الاسلام :

وأريد أن أقول لكم إن الثورة على الدين والانصراف عنه والزهد فيه ، ينحصر فى نطاق القادة الموجهين ، والزعماء الذين ملكوا زمام هذه الأقطار ، والشعوب بريئة من هذه الردة ، و الجماهير تكره هذه الاتجاهات كراهة شديدة ، و هى ساخطة عليها متذمرة منها ، و لكنها مغلوبة على أمرها ، تساق كالغنم ، و تدفع إليه دفعاً ، و لكن أقول بصراحة : إن هذه الشعوب لاتتخلى عن تبعة هذه الاتجاهات المعادية للاسلام و عن مسئوليتها ، فقد أصيبت بضعف الحمية الدينية و الشعور الدينى ، و احتمال كل تحد للاسلام ، و الاستسلام للأمر الواقع والاخلاد إلى السكون والدعة ، و إيثار الهدوء و السلامة على المغامرة و المخاطرة بالنفس و الملذات و الفوائد الشخصية ، من زمن طويل لأسباب كثيرة ليس هذا محل شرحها و الافاضة فيها ، و لولا هذا ، لما تمكن هؤلاء القادة المتجهمون للاسلام ، المحاربون لتعاليمه

ومبادئه ، من الوصول إلى كراسى الحكم ، ومقاليد الأمور ، و لما تبوؤا الزعامة و القيادة ، و لو قفزوا إليها و تمكنوا منها بدهائهم ، و بتمكين الأجنبي ، أو بخدعـة و تلبيس ، لما استطاعوا البقاء فى هذا المركز مدة طويلة ، فان الصحـة أصل ، والمرض طارىء ، و الجسم السليم القوى يحمى نفسه من المرض ، و إذا أصيب به فى حين من الأحيـان ، فان قوة المدافعة التى أودعها الله فى الجسم السليم تتغلب عليـه ، و تنفيـه ، و لا يتسلط زعيم فاسد على شعب إلا إذا كان فيه استعداد لقبوله ، و كان فيـه خنوع و استسلام .

محاربة قادة هذه الثورة للاسلام ،
نتيجة حتمية لثقـافتهم و تربيتهم :

أما تنكر هؤلاء القادة للاسلام ، وقلبهم له ظهرالمجن ، و انتصابهم لاقصائه من الحياة و المجتمع ، وتجريده من كل سلطة و نفوذ ، فان الانسان مهما تأسف عليـه ليس له أن يتعجب عليه ، فان هذا الاتجاه والعداء للاسلام نتيجة حتمية طبيعية للنظام التعليمى ، الذى تربوا عليه ، و رضوا بلبانه ،

و الشجرة لا تلام على ثمرتها الطبيعية ، ولا يستغرب منها ، إنهم كما تعلمون من تاريخ حياتهم ونشأتهم ، نشأوا فى أحضان الأساتذة الغربيين و العلماء المستشرقين، وتخرجوا فى الكليات و الجامعات الغربية ، المدنية و العسكرية ، و ما كان على شاكلتها من المعاهد والمراكز التعليمية فى الشرق ، و قد كان المشرفون عليها و المعلمون فيها ، جادين حريصين على صرف هؤلاء الشباب ، الذين ينتمون إلى بيوتات كريمة ، و بعضهم أبنـاء ملوك المسلمين ، و رؤساء الحكومات ، عن دينهم وعقيدتهم ، و إفسادهم خلقياً و عملياً ، وإنشائهم على تفسخ واستهتار ، بطرق بارعة ، و أساليب حكيمة ، وقد كان ذلك فى بعض الأحيان بتوجيه من الحكومات الغربية ، و إيعاز منها ، لبسط نفوذها على هذه البلاد ، وتأمين مصالحها فيها ، و قد أساغوا وهضموا الأفكار والنظريات التى لقنها أساتذتهم و مربوهم الغربيون ، فأصبحت عندهم كالمسلمات والبديهيات ، و المقررات العلمية ، التى لا تقبل الجدل و النقاش .

و من هذه النظريات أن الاسلام قوة قد استهلكت

و تقدت ، و فقدت كل صلاحية للبقاء فضلا عن القيادة ، و إنها كبندقية قد أطلقت رصاصتها الأخيرة ، و أصبحت فارغة لا شحنة فيها ، و إذا كان لا بد منه ، و لا حيلة للتخلص منه ، فانه قضية شخصية ، هى بين العبد و ربه لا يسمح له بالتدخل فى صياغة الحياة ، و تشكيل المجتمع ، و كذلك المساواة بين الرجل و المرأة مساواة كلية ، والتمسك بالتشريع الاسلامى و بأحكام المواريث و الأحوال الشخصية - و إن كانت منصوصة فى القرآن - رمز للرجعية ، إلى غير ذلك من النظريات و الاقتناعات ، التى أخذها هؤلاء القادة ، إما مباشرة من أساتذتهم ، و إما تقليداً و إعجاباً بعلمهم ، فآمنوا بها إيمان أهل الدين المخلصين بالأصول الدينية ، و النصوص القطعية .

وقد تغلغل تقديس الحضارة الغربية بقيمها ومفاهيمها ، و تصوراتها ومظاهرها . التى لا تقدم ولا تؤخر فى مضمار القوة و الحياة الكريمة ، فى أحشائهم ، و امتزج بلحومهم و دمائهم ، حتى أصبح من المستحيل تجريدهم عنه ، و آمنوا

بأن هذه الحضارة الغربية و الفلسفة المادية ، قد بلغتا القمة من العقل و رقى البشر ، و حال تعصبهم لهذه الحضارة والفلسفة الغربية عن أن يطلعوا على مواضع الضعف والاخفاق فيها ، كما اطلع عليه كثير من رجال الغرب .

وآمن بعضهم بالفلسفة الشيوعية ، والمبادىء الاشتراكية إيماناً راسخاً تقليدياً ، كايمان الراسخين المتحمسين من المؤمنين بالأديان ، لا يحتملون نقداً لها ، ولا تمحيصاً ، ولا يفكرون فى إبداع أو ابتكار ، أو تكييف لها لبلادهم ، وإنما يقلدونها تقليداً أعمى ، و كان شأنهم فى قبول هذه الفلسفات كلها ، و حبهم لها شأن بنى إسرائيل الذين حكى الله تعالى عنهم فى القرآن ، فقال : « و أشربوا فى قلوبهم العجل » و بعضهم ، أو أكثرهم مسير لا مخير ، و مقود لا قائد ، وآلات صماء فى يد الموجهين فى الخارج .

فلما سنحت لهؤلاء القادة فرصة لتنفيذ هذه المبادىء والعمل بها ، انتهزوا هذه الفرصة ، و هنالك عرف مدى رسوخهم فى قبول هذه النظريات ، و قلق أهل الغيرة من المسلمين ،

مع أنه كان ذلك هو المتوقع المفروض من هؤلاء القادة والزعماء ، وكانت تبدو منهم بوادر تدل على ذلك ، ولكنهم لم يكونوا يملكون من الأمر شيئاً ، فلما وصلوا إلى مركز الحكم و القيادة لم يضيعوا فرصة لتطبيق نظرياتهم ، و رأوا فى ذلك ضماناً لبقائهم فى الحكم ، و تخلصاً من نفوذ « المتطرفين الرجعيين » الذين لا يزالون يشكلون الخطر الأكبر لقيادتهم و رئاستهم ، و صاروا ينشئون الأجيال على هذا الدرب ، حتى يصفو الجو ، و ترسخ قواعد حكمهم ، و يزول كل خطر ، و ما دام هذا النظام يعمل و يشتغل ، وهذه الشجرة توتى أكلها فلا تنتج منها إلا مثل هذه القيادات ، ولا يولد إلا أمثال هؤلاء الزعماء ، هذا هو منطق الأشياء و طبيعة الامور .

لماذا تعرضت الأقطار العربية لهذه المحنة القاسية :

أما لماذا أصبحت هذه الأقطار العربية الاسلامية التى أشرنا إليها مسرحاً لهذه الثورة على الاسلام ، ومركباً ذلولا ،

لهؤلاء الزعماء و القادة المتنكرين للاسلام ، المحاربين له بكل ما أوتوه من قوة و صلاحية ، و حول و طول ، و كانت فريسة سائغة سهلة لهذه المؤامرات و المخططات ، فله عندى سببان ، أحدهما داخلى ، و الثانى خارجى ،

أما السبب الداخلى الباطنى ، فهو ما ذكرت فى مفتتح الحديث : إن الله سبحانه وتعالى يعاقب على الكفران بالنعمة ما لا يعاقب على الكفر ، وعلى الكنود ما لا يعاقب على الجحود ، و استحضروا الآيات التى استشهدت بها ، و قد أكرم الله هذه الشعوب و الأقطار العربية باختيارها حاملة لرسالة الاسلام ، و اصطفاها لها ، و أنزل كتابه فى لغتها ، و بعث رسوله ، آخر الرسل ، و أشرفهم فيها ، ومن عليها بذلك ، فقال : « و إنه لذكر لك و لقومك و سوف تسألون » (١) و كتب لها الامامة والقيادة ، للأمم التى

(١) سورة الزخرف : ٤٤ ، أى شرف لك ولقومك ، قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما و مجاهد و قتادة و السدى و ابن زيد ، و اختاره ابن جرير و لم يحك سواه ، (ابن كثير الجزء السادس ص ٢٢٨) .

تؤمن بهذا الدين ، و تدخل فى حظيرة الاسلام ، و حبب لغتها و علومها ، و آدابها و حضارتها و عاداتها إلى هــذه الأمم ، فقلدتها فيها ، و اقتبستها منها ، و تفاخرت بالسبق فيها ، و التمسك بها ، فانتشرت هذه اللغة فى العــالم فى أقل مدة عرفهـا التاريخ للغة من اللغات ، و أصبحت لغة الدين و لغة العلم ، و لغة التأليف و التعليم ، والعبادة والسياسة ، و آثارها كثير من أبناء العجم و نوابغهم وعباقرتهم ، على لغتهم ، و آدابهم ، و حضارتها على حضارتهم ، وكان ما كان مما تحدث عنه التاريخ ، وتغنى به الشعراء والأدباء ، ولاتزال آثاره باقية ماثلة للعيون مما لا يوجد له نظير فى تاريخ أمـة من الأمم ، و لا فى تاريخ دين من الأديان .

و لـكن كثيراً مـن أبناء الأقطار العربيــة أنكروا أو تجاهلوا فضل الاسلام فى نهضتهم ، و استهـانوا بقيمته ، و تطلعوا و استشرفوا إلى القومية ، و الفلسفات الأجنبية ، و المبادىء الدخيلة ، كأنها نعمة من نعم الله ، و كأنها أرقى مما أكرمهم الله به ، وكان مثلهم كمثل طائفة من بنى إسرائيل

رافقت موسى ، ومرت بعباد أصنام ، فتحلبت أفواهها لهذا المنظر ، وسال لعابها على هذه الوثنية التى أنقذهم الله منها ، فقالت : « يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » وقد قص الله هذه القصة فى القرآن فى أسلوب تمثلت فيه استهانة بنى إسرائيل بنعمة التوحيد ، و افتتانهم السريع بالوثنية ، التى كان يجب أن تشمئز نفوسهم منها ، و تتقززها ، و ظهر فيه استنكار نبي الله موسى ، و حنقــه الشديد فى أروع شكل ، فقال : « . . . و جاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيــه و باطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلهاً و هو فضلكم على العالمين * » (١) .

و ما كان مثلهـــم إلا كمثل ابن ملك نشأ فى القصر ، و شبل فى نعمة أبيه ، ثم عاف الأطعمة الملوكية ، والسفرة السلطانية ، و رغب فى فتات المـــائدة ، و مرذول الطعام ،

---

(١) سورة الأعراف : ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠ .

وأحب الجلوس مع الكناسين ، فتوجه إليه النقد و الملام ، و أشير إليه بالبنان ، و تفززه ندماء الملك وخاصته واتهموه بخفة العقل و فساد الذوق .

و هذا سر وقوع هذه الأقطار لقمة سائغة ، وفريسة سهلة لهـــذه الاتجاهات الزائغة ، و الثورات على الدين ، و موجات الردة العنيفة ، و التحديات الصارخة للاسلام ، و لاسبيل إلى التخلص منها إلا العودة إلى الدين ، والاعتزاز به ، و الشكر على نعمة الله .

تركيز القيادات الأجنبية عنايتها على إضعاف هذا المركز الروحي والقيادى للعالم الاسلامى و أسبابه :

أما السبب الخارجى فهو أن الأجانب والقيادات الغربية الداهية المحاربة للاسلام ، قد ركزت كل جهدها و ذكائها على إضعاف هذه الأقطار ، التى كانت مصدراً للاشعاع الاسلامى ، و مركزاً لقوة الاسلام ، و كانت بمنزلة القلب للعالم الاسلامى كله ، وعرفت أنها إذا خضعت لهذه الدعايات و التعليمات ، و انتشرت فيها الفوضى الفكرية ، والاضطراب

العقائدى ، والفساد الخلق ، وتخلت عن مركزها القيادى للعالم الاسلامى ، و قطعت صلتها عن العالم الاسلامى ، فانهم قد نجحوا أكبر نجـاح ، و فتحوا أكبر حصن من حصون الاسلام ، واستطاعوا أن يسيطروا على العالم الاسلامى كله ، و انتقموا من أولئك الدعاة ، و الغزاة ، و الفاتحين الذين أدخلوا أبعد البلاد فى الاسلام ، و سلبوا الدولة البيزنطية المسيحية أفضل ممتلكاتها ، وهزموا المسيحية فى ميدان القتال ، و العلم و الحضارة .

و مما زاد هذا الجزء من العالم الاسلامى أهمية فى نظر القيادات الغربية ، و جعلها تركز عنايتها على إضعافه موقعه الجغرافى و العسكرى (الاستراتيجى) الذى لا يصرف عنه النظر فى خارطة العالم السياسية ، و فى حرب لا يستبعد وقوعها فى المستقبل ، و وجود أكبر مقـدار من الذهب الأسود (البـترول) الذى يعتبر الوريد فى عملية الحرب و الصناعة فى وقت واحد ، و إضافة إلى كل ذلك ارتباط قضية فلسطين ، ومصير دولة إسرائيل بهذه الشعوب الاسلامية

العربية ، و بهذه المنطقة التى تقع فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ارتباطاً سياسياً و دينياً ، و عاطفياً ، وعقائدياً ، لذلك كله ركزت اليهودية العالمية ، و الماسونية ، و ما ينبثق عنها من تنظيمات و ندوات و مجامع ، نشاطها و ذكاءها على التسرب إلى مراكز القيادة و التوجيه فى هذه المنطقة ، و السيطرة على قادتها و زعمائها ، و استخدامهم لمصالحها من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، فما عرف لهذه المؤسسات اليهودية والمسيحية السرية نشاط فى الشرق الأقصى و فى شبه القارة الهندية - على سعتها و أهميتها - من زمن طويل مثل ما عرف فى هذه المنطقة التى تحتل المكانة الأولى فى مخططاتها السياسية و الدينية و التوسعية .

الحاجة إلى صوغ نظام التربية صوغاً جديداً ، و نقل مركز التوجيه من الغرب إلى الشرق :

و لا سبيل إلى وقف هذا المد من الردة الفكرية و العقائدية التى بدأت — بحكم الوسائل الكثيرة المتنوعة التى تملكها الحكومات فى هذا العصر لانشاء الأجيال و تكوين

جديد لعقليتها ، و التأثير فى ميول الجمهور و أذواقهم — تخرج من نطاقها المحدود ، و تصوغ المجتمع صوغاً جديداً إلا أمران لا ثالث لهما ، الأول صوغ نظام التعليم الذى يربى قادة البلاد والموجهين للمجتمع صوغاً جديداً شاملا للمواد الدراسية كلها ، وإقصاء جميع العناصر التى تفقد الثقة بصلاحية الاسلام ، وخلود رسالته ، وتحدث البلبلة الفكرية والاضطراب العقائدى ، و التناقض فى الحياة والنفاق فى الأخلاق ، ونقل مركز عملية التكوين الفكرى و التثقيف العالى ، من الغرب المحارب للاسلام المتحرر من ربقة الدين ، الثائر على القيم الخلقيـــة ، إلى الشرق الاسلامى ، و من أساتذة و مربين متشككين مشككين ، إلى أساتذة و مربين مؤمنين متدينين ، و ما لم يتم صوغ هذا النظـام — لا التلقيح و التلفيق — صوغاً جديداً ، و نقل مركز التكوين و التربية ، فسيظل نشوء هذا الطراز من القادة و الزعماء و مجدفى السفينة باقياً مستمراً ، وسيظل هذا الخطر جاثماً على صدر البلاد والشعوب الاسلاميـــة ، لا تزيله تمنيات المخلصين ، و محـــاولات

الصالحين المستضعفين (١) .

توعية الشعوب الاسلامية و الجماهير توعية لا تقبل تضليلا و لا تحتمل كيداً للاسلام :

و الأمر الثانى هو توعية هذه الشعوب الاسلامية توعية إسلامية عميقة شاملة ، و إثارة الغيرة الاسلامية فيها، توعية تمنعها من أن تكون لقمة سائغة لهؤلاء القادة الثائرين على الدين ، تمنعها من إساغة ما يلقمونها أو يلقنونها من أفكار مستوردة ، و نظريات دخيلة ، و اتجاهات معارضة للاسلام ، وتمنعها من السكوت على هذه المخططات اللادينية ، و التشريعات المتناقضة مع الاسلام ، و التغييرات التى يحدثها هؤلاء القادة بين حين و آخر ، فلا تحرك ساكناً ولاتحدث اضطراباً ، ولاضمان لبقاء هذه الشعوب على المنهج الاسلامى، بل على عقيدتها و إيمانها رغم وجود المساجد و المدارس ، و مظاهر النشاط الدينى ، و الحماس الاسلامى ، إلا إذا

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى كتابنا « نحو التربية الاسلامية الحرة فى البلاد الاسلامية » الطبعة الثانية ، دار القلم دمشق .

كانت واعية للاسلام ، متفانية فى حبه ، مشمئزة كل الاشمئزاز من الكفر و الالحاد ، والافكار الجاهلية ، بأوسع معانيها ، مؤثرة لدينها على دنياها ، و لرضا الله على رضا أصحاب القوة و السلطان ، لا تقبل التخلى عن شعيرة من شعائر دينها ، فضلا عن عقيدة من عقائدها .

تأثير العزم الصادق ، و الجهد المتواصل فى قلب الأوضـاع و درء الأخطار :

أيها الاخوة الكرام ! إننى أخاف أن هـذا التصوير القاتم لقيادات العالم الاسلامى بصفة عامة ، و قيادات العالم العربى بصفة خاصة ، وهذا الواقع الرهيب الذى أشرت إليه ربما يفت فى أعضادكم ، و يثبطكم فى مقاومة هـذا الخطر المحدق ، و أخاف أن يتسرب اليأس إلى نفوسكم ، ولكنى أقول لكم — وكان تاريخ الاصلاح والتجديد الدينى موضوع دراستى و تأليفى بصفة خاصة — و لا أخلى الحكومات الاسلامية ، إن كانت هنالك حكومات إسلامية بالمعنى الصحيح ، و لا المنظمات الاسلامية ، عن تبعتها و مسئوليتها ، و إنها

لا شك أقدر على مقاومة هذا التيار العنيف ، وعلى معالجتها بالطرق التى أشرت إليها ، و لكننى أقول لكم فى ضوء دراساتى ، إن تاريخ الاصلاح و التجديد فى الحقيقة تاريخ العزائم الفردية القوية فى غالب الأحيان ، إنكم لا تقرؤن فى تاريخ الاصلاح الاسلامى ، أنه كانت هنالك جمعيات تقرر محاربة هذه الردة ، ومواجهة هذا التحدى ، ولم تكن هنالك جمعيات سرية تضع مخططات دقيقة .

مثالان من التاريخ أيضاً :

واضرب لكم مثلين فقط ، أولهما لما زحف التتر على العالم الاسلامى ، فوقع كله تحت سنابك خيلهم ، وتحت رحمة هؤلاء الوحوش الذين لايعرفون الرحمة ، و ما أشق الانسان الذى يقع تحت رحمة من لايعرف الرحمة ؟ دوخ التتر العالم الاسلامى كله من أقصاه إلى أقصاه ، فأصبح جريحاً محطم الأعصاب ، محطم الجسم ، هشيماً كهشيم المحتظر ، ثم ماذا كان ؟

هل سمعتم أن العلماء المعاصرين اجتمعوا فى مكان سرى

و قرروا قراراً ، أو اتخذوا مشروعاً بالأغلبية ، يقولون : إننا نقرر منذ الآن أننا سنحارب هذا الخطر الداهم ، هذا الشر المستطير ، هذا التحدى السافر للاسلام والمسلمين، ولكن المسلمين قبلوا هـــذا التحدى ، وقام رجال لا يذكر ، بل لا يعرف التاريخ أسماءهم ، علماء ربانيون مخلصون ، قالوا : إننا لا نستطيع أن نقابل سيفهم بسيف ، فقد أصبح السيف الاسلامى مفلولا من زمن طويل ، و لكننا لا نزال نحمل شعلة الايمان ، و لا يزال الاسلام جديداً دافقاً بالحيوية ، إننا سنخضع هؤلاء الوحوش الذين أخضعوا العالم الاسلامى ، لرسالة الاسلام الانسانية الخالدة ، وشريعته الحنيفية السمحة ، ونفتح قلوب الفاتحين الذين فتحوا بلادنا و أراضينا ، وسبوا ذرارينا ، للاسلام وحبه ، و يذكر المؤرخون الغربيون (١)

(١) فى مقدمتهم آرنولد صاحب تاريخ دعوة الاسلام (Preaching of Islam) راجع تعريب الكتاب « الدعوة إلى الاسلام» بقلم جماعة من الأساتذة المصريين ص ٢٥٠ ، و « رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام » ج ١ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ الطبعة الرابعة ، دار القلم ، الكويت .

أنه كانت هنالك منافسة شديدة بين المسيحية وبين الاسلام ، أيهما ينتصر على هؤلاء التتر الوثنيين الجهال (PAGANS) وتجذبهم إلى جانبها ، وكانت كل القرائن تدل على أن المسيحية ستكون المجلية فى هذا المضمار ، و تحرز قصب السبق ، لأنها كانت بمعزل عن هذه الحوادث ، و كان المسلمون هم الذين هاجوا هؤلاء الوحوش الذين كانوا محصورين فى قراقرم ، وفى قراهم فى آسيا الوسطى منذ قرون ، لا شأن لهم بالعالم الخارجى ، و أيقظوا هذه الفتنة النائمة بطيش ملك من ملوكهم (١) ، و قلة بصره بالعواقب .

و لكن ماذا كان ؟ انتصر الاسلام ، وأسلم التتر على بكرة أبيهم ، و كان منهم علماء و فقهاء ، و كان منهم عباد و زهاد ، و كان منهم مؤلفون ، و كان منهم مجاهدون ، وكان منهم من أسس دولا قوية فى أنحاء العالم ، منها حكومة

(١) هو علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ — ٦١٧ﻫ) الذى قتل جماعة من تجارهم ، و لما أرسلوا السفارة أهانها وطردها شر طرد ؛ راجع للتفصيل ، « رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام » الجزء الأول ص ٢٩٤ - ٣٠٥ .

آل عثمان ، التى رفعت راية الاسلام عالية خفاقة فى قلب أوربا خمسة قرون ، و منها الحكومة المغولية الاسلامية التى قامت فى الهند ، وتحدثت عنها فى هذا الحديث ، لقد انتصر الاسلام على المسيحية فى هذه المعركة ، لأن تعاليم الاسلام كانت أقرب إلى الفطرة ، و أقرب إلى العقل ، وأقدر على تنظيم الحياة ، و ترقية المدنية ، و قيادة الحكومات ، من المسيحية السلبية ، الزاهدة فى الحياة ، و لأن إخلاص دعاة الاسلام و علمائه فى ذلك العصر ، كان يفوق إخلاص دعاة المسيحية ، و لأن الفكرة قد ملكت عقولهم ، واستحوذت على مشاعرهم ، وكانوا كالأم الرؤوم التى قد فقدت وحيدها ، و لم تكن القضية بالنسبة إلى المسيحية ، كما كانت بالنسبة إلى المسلمين ، و ليست النائحة كالثكلى ، و يحدث التاريخ — على عدم استيفائه لأخبار إسلام التتر و أسبابه و من كان لهم الفضل فى ذلك فلا يزال تاريخ إسلام التتر ناقصاً مبتوراً ، ينتظر مؤرخاً عالى الهمة كثير البحث — عن مآثر فردية ، و عن أشخاص كانوا السبب فى إسلام مآت ألوف من التتر،

و دخول حكومة تاتارية بأسرها فى الاسلام (١) ، وما ذلك إلا لشدة إخلاصهم، وتوجعهم، وربانيتهم ، وهى من آلاف قصص ضيعها التاريخ ، و كان من أسباب هذا الضياع ، و عدم اطلاع الناس عليها ، حرصهم الشديد على إخفاء أسمائهم ، وألا يكون فى هذا العمل حظ لنفوسهم وللشيطان .

و أذكر مثالا ثانياً ، هو الخطر الأكبر الذى حلق على المسلمين والاسلام فى عهد السلطان جلال الدين أكبر ، وقد تحدثت عن تصميمه على تحويل شبه القارة الهندية من الاسلام إلى البرهمية ، و دين مزيج من العقائد و التقاليد والشعائر ، و كانت مرحلة انتقالية حاسمة لم يعرف تاريخ الهند الاسلامى مرحلة أدق منها ، هل تعرفون كيف استطاعت الهند الاسلامية أن تحافظ على دينها و عقيدتها ، وكيف استطاع المجتمع الاسلامى ، الذى وقع فى براثن هذا الملك القوى العصامى،

---

(١) إقرأ على سبيل المثال قصة إسلام الأمير تغلق تيمور ملك كاشغر أحد ملوك التتار الكبار، لمجرد حديث داربينه وبين الشيخ جمال الدين الايرانى «فى دعوة الاسلام» لآرنلد ص٢٦٥-٢٦٧؛ والقصة مذكورة فى « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام» الجزء الأول ص٣١٨-٣٢٠ .

الذى قرر إقصاء الاسلام من الحياة و السلطة ، و احتضن البرهمية ، و شايع المتحررين و الزنادقة من علماء الدين والفلسفة ، وقد اجتمع حوله عدد من كبار الأذكياء والأدباء و المؤلفين و علماء الفلسفة و العلوم العقلية (١) ، يتفخون فى قربته ، و يبالغون فى مدحه و إطرائه ، و يصلون به إلى درجة « المجتهد المطلق ، والامام الكامل العادل » ومفتتح الألف الثانى ، ويخيلون له أن نبوة سيدنا محمد ﷺ قد انتهت على الألف الأول ، و السلطان هو صاحب الثورة الثانية ، و إمامها (٢) .

---

(١) كأبي الفيض فيضى و أبي الفضل ، ابن الشيخ مبارك الناكورى ، والأمير فتح الله الشيرازى ، والحكيم على الكيلانى وغيرهم ، إقرأ تراجمهم فى « نزهة الخواطر و بهجة المسامع و النواظر » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى ـ رحمه الله ـ ، الجزء الخامس .

(٢) إقرأ التفصيل ترجمة السلطان جلال الدين أكبر فى الجزء الخامس من كتاب « نزهة الخواطر» للسيد عبد الحى الحسنى ـ رحمه الله ـ واقرأ المحضر الذى كتبهُ أبوالفيض فيضى فى بيان إمامة السلطان جلال الدين أكبر ، و وصوله إلى درجة الاجتهاد .

إنها مأثرة رجل واحد ، اسمه الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندى (المتوفى ١٠٣٤هـ) ، إن هذا الرجل كان عمرى النسب ، و لكنه اتخذ الكلمة التى نطق بها أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — يوم الردة ، إمامه و رائده ، إن أبا بكر قال : « أينقص الدين و أنا حى ؟ » وهو قال : « أينقرض الاسلام من الهند وأنا حى ؟ » و من ذلك الحين ركز مواهبه ، و جمع قواه — الروحية والعلمية — لتحقيق غاية واحدة ، وهى إبقاء الهند فى حظيرة الاسلام ، و تحت راية نبوة محمد عليه الصلاة و السلام ، و إنقاذ هذه البلاد العريقة فى الاسلام من الردة العقائدية والحضارية ، التى يتبناها ويقودها أكبر ملك فى عصره يتسمى بالاسلام ، ، وقد أصبحت هذه الغاية همه الوحيد ، واستولت على مشاعره و تفكيره ، فكأنه يتقلب على الجمر ، و يبيت على حسك السعدان ، يبكى دماً على غربة الاسلام فى داره ، و ينذر بالخطر الداهم بوجوده و بقائه فى بلاد سقاها المسلمون بأزكى دمائهم و أغزرها ، وقد أصبحوا فيها كالأيتام

فى مأدبة اللئام ، كما قال طـــارق بن زياد فاتح الأندلس ، واستمان فى تحقيق هذه الغاية بكل وسيلة ، من اتصال برجال البلاط و مراسلتهم (١) ، و التـــأثير فى عقولهم و إثارة الغيرة الاسلامية فيهم ، واستنهاض هممهم لنصرة الاسلام ، و من تربية الدعاة والمربين ، و نصبهم فى ثغور الاسلام ، و مراكز حساسة ، وتوجيههم فى وقف هذا المد ، والدعوة إلى الاسلام ، و السعى فى إعلاء شعائر الدين ، و إحياء السنن النبوية ؛ و نشر العلوم النافعـــة ، و محـــاربة البدع و المحدثات بجميع أنواعها ، والدفاع عن عقيدة أهل السنة ، إلى غير ذلك من الوسائل التى كانت ممكنة فى عصره ، و ذلك كله مع عزوف عن المناصب الرسميـــة ، و زهد و قناعة ، و عزه نفس ، واكتفاء بالتعليم والتربية ، وتزكية النفوس ، و دعاء الخلق إلى الله .

---

(١) إقرأ رسائله الرقيقة المرققة فى تصوير غربة للاسلام ، وغلبة الكفر فى آخر عهد السلطان جلال الدين أكبر ، وما يكيده حذاق أعداء الاسلام من رجال الدولة ، للاسلام والمسلمين ، فى مجموع رسائله الخالدة فى الفارسية .

و بدأت مساعيه تتكلل بالنجاح ، و كانت كل القرائن و الشواهد تدل على أن الاسلام يلفظ نفسه الأخير فى هذه البلاد ، و أن أيامه قد انتهت ، و بدأ غرسه يثمر ، و بدأت فى الأسرة الملكية و رجال البلاط وأركان الدولة حركة تحول تبتدأ ضعيفة وئيـدة ، و تقوى على مر الأيام فتبدو جلية واضحة ، فيموت الملك أكبر ، و لا نعرف على ما مات عليه الرجل ، و يخلف ولده السلطان نور الدين جهانكير (٩٧٧ — ١٠٣٦هـ) : فيعـامل الشيخ بالحب و الاحترام ، و يصغى لنصائحه ، و يقضى على كثير من سنن والده وما أحدثه ، ثم يخلفه شهاب الدين محمد شاهجهان (١٠٠٠ — ١٠٧٦هـ) الذى يعرفه الجميع بمآثرته المعمارية الفريدة ، « التاج محل » ، وتستطيعون أن تقدروا اتجاهه ، بما رواه التاريخ ، أنه لما جلس على عرش الطاؤس المصوغ من الذهب الخالص ، و المرصع بالجواهر الكريمة و اللآلى الثمينة ، و الذى أنفق عليه مآت آلاف من النقود نزل من ساعته ، و قال : لقد كان فرعون راعنا ، خفيف العقل ،

تربع على عرش صنع من الخشب ، و كفر بالله ، و قال « أنا ربكم الأعلى » و ها آنذا أجلس على هـــذا العرش ، و أسجد لله تبارك و تعالى شكراً ، ثم خر ساجداً .

ثم يخلفه السلطان محي الدين أورنك زيب (١) عالمكير (١٠٢٨ — ١١١٨هـ) الملك الصالح ، الفقيه الزاهــد ، الغيور المجاهد ، المحيي لكثير من السنن و شعائر الاسلام ، المميت لكثير من البدع و آثار الجاهلية ، الذى كان يسمى جده الأكبر ، فيقول : الجـد الأكفر ، و هو الذى أمر بتدوين القانون المؤسس على الأحكام الاسلامية ، والنصوص الفقهية ، ليكون دستوراً للبلاد ، و مرجعاً فى الحياة الفردية و الاجتماعية ، و يسمى « الفتاوى العالمكيرية » ، واشتهرت هذه المجموعة فى البلاد العربية بـ« الفتاوى الهندية » ، وهى تعتبر مصدراً كبيراً من مصادر الفقه الحنفى فى العصر الأخير ، و عليها الاعتماد فى القضاء و فصل الخصومات ، فى شئون المسلمين الخاصة فى المحاكم الهندية من زمن الانكليز ، و كان

---

(١) إقرأ ترجمته الحافلة العاطرة فى الجزء السادس من « نزهة الخواطر »

هذا الملك الذى حكم أكبر رقعة موحدة فى هذه القارة بعد الامبراطور «أشوكا»، لا يأكل إلا من كسب يده، يخيط القلانس و يبيعها، و يأكل من ثمنها (١) و هو الذى أعاد الهند إلى الحياة الاسلامية و الحكم بالاسلام مرة أخرى، ورد الأخطار المحدقة بهذه البلاد، و حفظ مستقبل الاسلام فيها لمدة طويلة، لو رزق خلفاء أقوياء، و قيض للسلمين حكام و قادة عقلاء، و لم يبطروا نعمة الله، وحكموا هذه البلاد بيد من حديد، و عقل رشيد، لكان لتاريخ الاسلام الزاهى امتداد، و لما أنقرضت الدولة الاسلامية، و لما حدث ما حدث مما يعرفه الجميع.

إلى من يرجع الفضل فى هذه التحولات الكبيرة، وفى هده الانقلابات العجيبة، وفى هذه الانتفاضة للاسلام؟ يرجع الفضل فى ذلك إلى همة رجل اسمه الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندى، و لا يزال المعول — رغم تغير العصر و تعقد الأمور، و انقراض عصر الحكومات

---

(١) نفس المرجع.

الشخصية ، وحلول عصر الجماهير والشعوب — على النفوس المؤمنة ، النفوس الخاشعة الزاهدة ، عالية الهمة ، بعيدة النظر قوية الارادة ، التى تعاهد الله تبارك و تعالى ، أن تقبل هذه التحديات الموجهة إلى الاسلام و المسلمين ، و تقاوم هذا السيل الجارف الطاغى من الردة العقائدية الفكرية والحضارية ، التي تتخذ كلمة سيدنا أبي بكر الصديق - رضى الله تعالى عنه - « أينقص الدين و أنا حي » مبدأ و شعاراً ، و تهب لهذه الغاية التى لا غاية أفضل منها ، كل حياتها ولذاتها ومواهبها ، و لا ترى لحياتها قيمة و غناء إذ لم تتحقق هذه الغاية .

ليس للاصلاح والكفاح أسلوب واحد ،
و لكن المعول على الصدق و العزم :

و إننى إذ أضرب مثلا بطرازين للتجـــديد ، و إعادة الاسلام إلى مركزه فى الحياة ، والبعث الاسلامى الجديد ، يرجع تاريخ أحدهما إلى القرن السابع الهجرى ، والثانى إلى القرن الحادى عشر الهجرى ، فانني لا ألح على أسلوب واحد من الاصلاح و الكفاح ، والدفاع عن الاسلام ، فلكل عصر

أسلوب ، و لكل بلد وضع خاص ، و لكل بيئة وسائلها و إمكانياتها ، و القرآن يقول : « و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة » و الحديث النبوى يقول : « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بهـــا » ، و لكننى ألح على قوة الارادة و صحة العزيمة ، و تملك الفكرة ، و وضوح الغاية ، و هو الذى تمثل بوضوح فى هذين المثالين اللذين ضربتهما لكم ، وصدق الله العظيم : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » .

أمانة و عهد :

أنتم يا شباب الاسلام على ثغر من ثغور الاسلام ، فلا يؤتين من قبلكم ، إنكم تستطيعون بعزمكم أن تحققوا ما لا تحققه مؤسسات كبيرة ، و حكومات كثيرة ، فلهـــا ملابساتها و قيودها و مشاكلها ، ولها أجواء خاصة ، ومصالح معينة قد تكون مرتبطة بها ، هذه أمانة فى أعناقكم ، فارجعوا بها إلى بلادكم ، و عيشوا بها ، و موتوا عليها ، و هنـا على

غلوة من هذا المكان (١) ، وقعت غزوة أحد ، وشاع فى الناس أن رسول الله ﷺ قد استشهد ، ومر رجل برجال من المسلمين ، وقد ألقوا بأيديهم فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ ، قال : فماذا تصنعون بالحياة بعده ، قوموا ، فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ، ثم استقبل القوم ، فقاتل ، حتى قتل (٢) » .

« ألا فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع »



(١) إشارة إلى موقع الجامعة الاسلامية فى المدينة المنورة ، و قربها من مكان غزوة أحد .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٨٣ .

الفهرس

